الفصل الثاني

محمد بن عبد الله .. صلى الله عليه وسلم

(عصر النبوة أو عصر الرسالة / ٥٧٠ - ٦٣٢ ميلادية)

ولد محمد (ﷺ) يوم الاثنين ١٢ ربيع أول (عام الفيل) الموافق ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠ م . واتاه الوحي في غار حراء في يوم ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩ من شهر رمضان (١٥ - ١٧ - ١٩ - يناير عام ٦١٠ م) وتوالى الوحي عليه طيلة ثلاث وعشرين سنة ، مرشدا وهاديا وموجها له في كل أعماله . **وهاجر مع أصحابه إلى مدينة يثرب (المدينة المنورة الآن) في اليوم الثاني من يوليو سنة ٦٢٢ م. (بداية التأريخ الهجري)** . وفتح مكة في **السنة الثامنة من الهجرة** ومعه عشرة آلاف مؤمن ، وحطم أصنام الكعبة وطهرها من الأوثان عام ٦٣٠ م . ومات محمد (ﷺ) يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة ، الموافق ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م . وعاش محمد (ﷺ) فقيرا ، وقال قبل موته " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة " . ولم يترك ما يستحق أن يورث .

وقد تعرض الرسول (ﷺ) في أثناء حياته لثمانية عشر اعتداء من جانب المشركين (سُمّي الرد عليها ــ بعد ذلك ــ بغزوات الرسول) وهي في حقيقة الأمر لم تكن سوى حروب للدفاع ورد الاعتداء عن الدين الجديد . **وقد بلغ عدد شهداء المسلمين في جميع هذه الغزوات (١٨٣) شهيدا .. بينما كان عــدد جميع قتلى المشركين في المعارك (٢٠٣) مشركا** [١]

---

١ وعلى سبيل المقارنة .. أذكر بعض أرقام ما قام به بنو إسرائيل من إبادة للشعوب الفلسطينية كما وردت في الكتاب المقدس : فقد قاموا بإبادة (١٢,٠٠٠) من سكان مدينة عاي (يشوع ٨/ ٥) ؛ وإبــادة (١٠,٠٠٠) من الكنعانيين والفرزيين (قضاة ١/ ٤) ؛ وإبادة (١٠,٠٠٠) من سكان مدينة موآب (قضاة ٣/ ٢٩) ؛ وإبــادة (١٢٠,٠٠٠) من مديان (قضاة ٨/ ١٠) ؛ وإبادة (٨٠,٠٠٠) من ارام (صمويل ثان ٨/ ١٣.٥ ــ ١٠/ ١٨) . وإبادة (١٠٠,٠٠٠) من أرام (ملوك أول ٢٠/ ٢٩) .. وهكذا تترى إبادة شعوب المنطقة برواية العهد القديم على يد بني إسرائيل حتى بلغ عدد الضحايا (١,٦٣٥,٦٥٠) ..!!! وهو عدد هائل بالنسبة إلى أعداد تلك الشعوب في هذه الفترة .

بل وما زال مسلسل الإبادة والمذابح للشعب الفلسطيني الأعزل تجري ــ اليوم ــ على أيدي بني إسرائيل تحت سمع وبصر العالم كله .. ولا تعليق على هذه المذابح من جانب العالم المسيحي .. الذي يدعي أنه قد ملك الحضارة الإنسانية في الوقت الحالي ..!!!

(استثني من هذا عدد قتلى تحكيم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة) . فالمعروف أن القتال في الدين الإسلامي لم يشرع إلا لرد العدوان فحسب .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾
(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ١٩٠)

فكما نرى ؛ فإن الآية الكريمة تؤكد على عدم البدء بالقتال ، كما تؤكد على **النهي عن قتال الاعتداء** ، لأن الله لا يحب المعتدين على وجه مطلق . ولهذا يأمر رسول الله (ﷺ) عند قتال الأعداء : " لا تقتلوا طفلا ولا امرأة ولا بهيمة ولا تغدروا ولا تقربوا صوامع الرهبان " . بينما في المقابل ــ كما رأينا في الكتابات السابقة ــ نجد أن نصوص الكتاب المقدس (أي اليهودية والمسيحية) تؤكد وتحث على **قتال الاعتداء** (أرجو التنبه إلى أن الكلمة هي : الاعتداء وليس الأعداء) .. كما وأن عليهم ــ أي على الشعوب المسيحية واليهودية ــ أن لا يظهروا أي شفقة أو رحمة مع كل مخاليفهم .. وحتى مع الأطفال والشيوخ والنساء ورجال الدين ..!!!

• رأي خصوم الإسلام ..

ولن أعرض ــ في هذا الفصل الموجز ــ لتفاصيل حياة الرسول (ﷺ) وحروب أهل الشرك عليه ومقاومتهم للدين الجديد .. فهناك الكثير من الكتب والمراجع التي تعالج مثل هذه الموضوعات وتعرضها بأدق التفاصيل ، ولكني سوف أكتفي ــ هنا ــ بذكر تأملات في الإنجازات غير العادية التي حققها محمد (ﷺ) كما كتبها واحد من أشد خصوم الإسلام عداوة .. وهو : " **جورج بوش** " [٢] الجد الأكبر (١٧٩٦ – ١٨٥٩) للرئيسين الأمريكيين جورج بوش الأب وجورج دبليو بوش الابن في كتابه : " **محمد : مؤسس الدين الإسلامي** ..

---

٢ " جورج بوش " : أستاذ وعالم من أعلام الاستشراق الغربي ، وأستاذ في جامعة نيويورك سيتي في اللغة العبرية . وعلى الرغم من أن المؤلف كان يصف الرسول (ﷺ) بأنه " دعيّ " في أحيان كثيرة ، إلا أنه في أحيان أخرى كان يتحدث عنه واصفا إياه بالنبي وأحيانا بالرسول ، وذلك في سياق فهمه أن الأمور مقدرة سلفا وأن القضاء والقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى .. وإنه لا يكون في كون الله إلا ما يريد .

وما يريده الله سبحانه وتعالى ــ على حد فهم بوش المؤلف ــ هو أن ينتشر الإسلام ولكن إلى حين ، ثم يعود بعده المسلمون إلى حظيرة الإيمان بالدين المسيحي ، وبعدها يعود المسيح (عليه السلام) إلى الأرض ليحكم العالم لمدة ألف سنة سعيدة (العقيدة الألفية السعيدة) . فالدين الإسلامي من منظور هذا المؤلف هو حدث عارض ، وسوط عذاب أنزله " يهوه " (أي : الله ﷻ) على المسيحية التي ضلت سواء السبيل ، ولهذا فهو يدعو الكنائس للعودة إلى الدين المسيحي حتى ينزاح عنها هذا الكابوس ، والذي أنزله الله لفترة محدودة ، ليبلو به المسيحية والعالم المتحضر ..!!!

ومؤسس إمبراطورية المسلمين " ؛ وهو كتاب ترجمة وحققه د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ . وقام بنشره دار المريخ للنشر في الرياض ــ بالسعودية (سنة : ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) . كما يحوي الكتاب المترجم النص الإنجليزي بهدف التوثيق . وفي هذا الكتاب ؛ نجد المؤلف يقول في الفصل الخامس عشر (صفحة : ٣٥٣ وما بعدها من الترجمة العربية) :

[وهكذا انتهت مهمة محمد (ﷺ) على ظهر الأرض . هكذا انتهت مهمة واحد من أبرز الرجال وأكثرهم جدارة بالالتفات على الإطلاق . هكذا انتهت المهمة الدنيوية لأكثر المدّعين نجاحا وتصميما . لقد استطاع بطموحه الواسع أن يوجه المواهب الوطنية ، فتطورت بداياته المتواضعة إلى ذروة القوة بين العرب ، **وكان قد بدأ قبل أن يموت ثورة من أعظم الثورات التي عرفها تاريخ البشرية** ، **لقد وضع أساس إمبراطورية استطاعت في ظرف ثمانين سنة فقط أن تبسط سلطانها على ممالك وبلاد أكثر وأوسع مما استطاعته روما في ثمانمائة سنة** . وتزداد دهشتنا أكثر وأكثر إذا تركنا نجاحه السياسي وتحدثنا عن صعود دينه وانتشاره السريع واستمراره ورسوخه الدائم . والحقيقة أن ما حققه نبي الإسلام والإسلام لا يمكن تفسيره إلا بأن " **يهوه** " (أي : الله ﷻ) كان يخصهما برعاية خاصة ، فالنجاح الذي حققه محمد (ﷺ) لا يتناسب مع إمكاناته ، ولا يمكن تفسيره بحسابات بشرية معقولة . لا مناص ــ إذن ــ من القول أنه كان يعمل في ظل حماية " **يهوه** " (أي : الله ﷻ) ورعايته . لا تفسير غير هذا لتفسير الإنجازات ذات النتائج الباهرة ، ولا شك أنه يجب علينا أن ننظر للدين المحمدي (يقصد بهذا الدين الإسلامي) في أيامنا هذه بوصفه شاهدا قائما ينطوي على حكمة غامضة ليهوه (أي : الله ﷻ) لا ندري مغزاها ..

(.. the mysterious wisdom of Jehovah, designed to compass ends which are beyond the grasp of human minds.)]
(انتهى)

ويعرض جورج بوش ــ المؤلف ــ لصفات الرسول (ﷺ) كما وردت عن أتباعه ودونتها كتب السيرة .. فنجده يقول :

[.. لقد مجده أتباعه لتقواه وصدقه وعدالته وتواضعه وإنكاره لذاته . انهم لا يساورهم أدنى شك في أنه نموذج كامل للإيمان والصدق . إنهم يتحدثون عن إحسانه ويركزون عليه بشكل خاص ، فهم يقولون أنه كان محسنا بشكل واضح لا يمكن إغفاله ، فقلما كان يحتفظ في

بيته بمال أكثر مما يكفي لإعاشة أسرته ، بل إنه كان يؤثر على نفسه فيقدم للفقراء ما يحتاج هو إليه .]

ويعلق جورج بوش ــ المؤلف ــ على هذه الصفات فيقول ..

[.. من المحال أن نفصل بين دوافع محمد (ﷺ) لعمل الخيرات الصادرة عن قلب نبيل ودوافعه لعمل الخيرات لتحقيق مصالح سياسية . .. فالإنسان قد يهدف لأن يكون عادلا كريما ، وأن يتصرف بوصفه قديسا عندما لا يكون لديه باعث سوى تقمص شخصية نبي وسلطان ملك . فإن كان محمد (ﷺ) حقيقة قد تحلى بفضائل نبي فلاشك أنه كان يضع عينيه على ما يحوزه النبي من مكافأة أو جزاء . إننا نظن أنه من غير المحتمل ألا تكون تصرفاته طيبة وطبيعية ومتفتحة ونبيلة جذابـــة ، وربما عظيمة متسمة بالشهامة وسعة الأفق ، ونحن نظن أن الكتاب المسيحيين ظلموا هذا الرجل (يقصد محمد ﷺ) نظرا لمقتهم له]

(انتهى)

ويختم جورج بوش ــ المؤلف ــ حديثه بوصف الأيام الأخيرة عن محمد (ﷺ) فيقول ..

[.. ولقد كان ــ محمد ﷺ ــ مدركا لاقتراب أجله منذ مدة ، ويقال أنه كان ينتظر الموت بثبات وإيمان . فقبل موته بثلاثة أيام أمر بأن يحمل إلى المسجد ليبارك أتباعه ويدعو لهم ويعظهم ، وساعده أصحابه على ارتقاء المنبر فراح يدعو لمن مات من أصحابه وقدم نموذجا للتواضع والتوبة قلما نجدها في وصايا القرآن المجيد . لقد ذكر ما معناه إن كنت قد جلدت أحد منكم بغير حق ، فها هو ظهري فلينتقم مني ، وإن كنت قد أسأت لأحد من المسلمين فليذكرني الآن أمام الناس . هل سلبت أحدا شيئا ؟ إن القليل الذي أملكه يكفي لسداد ديوني ، فقال واحد من بين الجمع نعم فأنت مدين بثلاثة دراهم فضية فسمعه محمد (ﷺ) ووفاه دينه وشكره لمطالبته بهذا في الدنيا وليس في يوم الحساب . وفي هذا اليوم اعتق عبيده ، وكانوا سبعة عشر رجلا وإحدى عشرة جارية ، وأصدر توجيهات بشأن جنازته قائلا إن موته يقترب ، وهدأ من روع من بكى من صحابته . **ولم يعين - بالاسم - من يخلفه** (وأرجو أن تعي الأنظمة الحاكمة هذا المعنى ــ أنظر الفصل الرابع من هذا الكتاب) ، ولو فعل لمنع المشادات التي كادت أن تقترب من حافة الصدام في دينه الوليد وفي إمبراطورية المسلمين . .. .. . وقد ذكر النبي وهو يحتضر لمن حوله ان الملك استأذنه في أخذ روحه فأذن له قائلا : " **بل الرفيق الأعلى** " .. فأراق الماء بيده الواهنة على وجهه وسرعان ما فاضت روحه ..] **(انتهى)**

وهكذا ؛ تنتهي كلمات جورج بوش ــ المؤلف ــ عن حديثه عن محمد (ﷺ) . وهكذا ؛ يشهد خصوم الإسلام لنبي الإسلام محمد (ﷺ) بأخلاقه النبيلة وشخصيته الفذة .. بل ويعجبون لنجاح هذا الدين إلى الحد الذي يؤكدون فيه أن نبي الإسلام كان مدعم من " **يهوه** " (أي من الله سبحانه وتعالى .. كما يعرفوه بهذا الاسم في الكتاب المقدس) لحكمة لا يعرفون مغزاها ..!!! أو يرونها ابتلاء للكنيسة بهذا الدين بعد أن ضلت الكنيسة سواء السبيل ، وذلك في محاولة لإيجاد تفسير لهذا النجاح ..!!! أي هم يرون الإعجاز الهائل في هذا الدين وفي مؤسسه محمد (ﷺ) ومع ذلك يصرون على رفض الإيمان به ولهذا يصفهم المولى عز وجل بقوله تعالى ..

﴿ .. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾

(القران المجيد : الحج {٢٢} : ٤٦)

وإذ أنهي هذه الفقرة ؛ أحيل القارئ ــ في المقابل ــ إلى كتابي السابق : " **الحوار الخفي .. الدين الإسلامي في كليات اللاهوت** " .. للتعرف على شخصية " **بولس الرسول أو بولس الحواري** " المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية ، لرؤية ومعرفة الفجوة الهائلة بين شخصية الرسل والأنبياء الكذبة (متمثلة في شخصية بولس الرسول) .. وبين شخصية الرسل والأنبياء الصادقة (محمد ﷺ) .

ويبقى أن أشير إلى أن إيماننا ــ نحن المسلمين ــ بالدين الإسلامي لا يقتصر على شخصية ونبل أخلاق محمد (ﷺ) فحسب كما ذكر بوش الجد في كتابه .. فهذا لا خلاف عليه حيث وصفه الخالق تبارك وتعالى بقوله ..

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾

(القران المجيد : القلم {٦٨} : ٤)

وهذا يكفي .. بل نبني إيماننا بالدين الإسلامي على أساس فكر " **التحول في النموذج الديني** " .. وهو الفكر الذي يعني أن الدين الإسلامي قد نقل " **القضية الدينية** " من حيز الأسطورة والخرافة (الديانتان اليهودية والمسيحية) إلى حيز العقل والفطرة السليمة .. ومن حيز الاعتقاد فحسب .. أي من حيز الاعتقاد بدون برهان وهو ما يعني **الإيمان غير العاقل .. إلى حيز الإيمان المبني على العقل والعلم .. شأنه في هذا شأن القضايا العلمية الراسخة (في مقابل إيمان الحيوان في الديانتين اليهودية والمسيحية كما يقول بهذا الفلاسفة الغربيين)** . فقد كرم

الله (ﷻ) العقل ــ في الدين الإسلامي ــ وجعله مناط التكليف (أي لا دين لمن لا عقل له) فعن رسول الله (ﷺ) ــ عن عليّ رضي الله عنه ــ قال : [رُفِعَ الْقَلَمُ (أي رفع الحساب) عَنْ ثَلاثَةٍ : عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَشِبَّ وَعَنْ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَعْقِلَ] . وتتمثل القضايا العلمية ــ أساسا ــ فيما يقدمه القرآن المجيد من إعجاز معرفي هائل لا يمكن أن يصدر إلا عن الخالق العظيم والمطلق لهذا الكون . **والقرآن المجيد ــ أيضا ــ هو الكتاب الذي صحح ما سبقه من أديـــان سماوية تم تحريفها عن قصد وعن غير قصد .**

• كيف يواجه الآخر الدين الحق ..

مع كل ما سبق ذكره عن قيم الإسلام العظيمة وأخلاقياته المتناهية في المثاليات .. يأتي في المقابل .. كتاب مقدس يموج بالخرافات والأساطير .. ودوافع إرهابية ودموية ــ غير مسبوقة ولا ملحوقة في التاريخ ــ لإبادة الغير ..!!! ولا يدفع شعوب الإيمان بهذا الكتاب سوى الفطرة الدينية (على النحو السابق شرحه في مراجع الكاتب السابقة [٣]) من جانب ، وهوى النفس في السيطرة والتكالب على الدنيا من جانب آخر . ولهذا يقوم رجال الدين المسيحي / اليهودي بسجن عقل الأتباع داخل جدران المعبد والكنيسة .. بعمل الآتي ..

١. إرهاب الأتباع من التحكيم العقلي في القضية الدينية .

٢. إرهاب الأتباع من التفكر والنظر في معاني القرآن العظيم والدين الإسلامي .. إلا من خلال ما يقدمه رجال الدين المسيحي واليهودي لهم من تزييف للحقائق .

٣. **خداع الأتباع** بتقديم صورة مغلوطة وغير صحيحة بالمرة عن الدين الإسلامي .. بافتراءات صارخة تعتمد على الإسرائيليات والغث من كتب التراث ، التي لا علاقة لها بالقرآن المجيد أو السنة الصحيحة . وكذا اتهام الإسلام بالإرهاب ، على الرغم من كون نصوص الكتاب المقدس هي مدارس الإرهاب الأولى في العالم . كما يعمد رجال الدين المسيحي ــ أيضا ــ إلى تصدير مشاكل الكتاب المقدس (الخرافة والأسطورة والتناقض مع المعنى العلمي) إلى القرآن المجيد .

٣ منها على سبيل المثال : " الإنسان والدين .. ولهذا هم يرفضون الحوار " ، فهو يناقش سيكلوجية الدين والتدين لدى جموع شعوب الديانات الوثنية كاليهودية والمسيحية وغيرها ؛ مكتبة وهبة .

٤. إجراء عمليات " **غسيل مخ** " منظمة على الأتباع برفض العقل وقبول مبدأ الخرافة والأسطورة في الدين .

٥. سجن عقل الأتباع داخل جدران الكنيسة أو جدران المعبد تحت دعوى أن رجال الدين هم أهل العلم والتخصص ، وهم الأقدر على فك طلاسم الخرافة والأسطورة التي تحويها دياناتهم .. وعلى الأتباع اللجوء إليهم لحـــل مشاكلهم الدينية ..!!!

فهذا هو موقف الديانتين المسيحية واليهودية من الإسلام ..!!!

• كلمة موجزة عن تراجم القرآن ..

وأخيرا أود أن أضيف ؛ أن تراجم القرآن المجيد للغات الأخرى تحرم القران المجيد ــ في أحوال كثيرة ــ من معانيه الكلية والشاملة .. والتي قد تصل نسبتها في بعض الأحيان إلى حرمان بعض النصوص لأكثر من ٩٠% من معناها .. هذا إن لم تكن الترجمة خاطئة تماما في أحيان أخرى . فقراءة ترجمة معاني القرآن المجيد لا تعني ــ في جميع الأحوال ــ سوى قراءة فهم وخبرة الفرد أو الأفراد القائمين بهذه الترجمة أو التراجم . ولهذا فإن تحول البعض غير المسلم إلى الإسلام ــ وخصوصا غير المتكلمين للغة العربية ــ هو في حقيقة الأمر إيمان مبني على رؤية شريحة ضيقة (**a narrow band**) من معاني القران العظيم فحسب (على النحو الذي بيناه في المراجع السابقة [٤]) وهو ما يضاعف أجرهم (إن شاء الله) .. فما بال الحال لو أدركوا أو تم لهم معرفة معظم معاني القرآن العظيم .. على النحو الفعلي ..!!!

• فلسفة الجهاد في الإسلام ..

كما سبق وأن ذكرت في المراجع السابقة : إذا قلنا بوجود غايات من خلق الإنسان فلابد وأن يكون " **الدين** " هو البلاغ الصادر عن الخالق المطلق لتعريف الإنسان بوجود هذه الغايات والحكمة من وجوده .. حيث يأتي هذا المعنى في قوله تعالى :

---

٤ " التحول في النموذج الديني .. القرآن المجيد : العهد الحديث " ؛ مكتبة وهبة .

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢)﴾

(القران المجيد : إبراهيم {١٤} : ٥٢)

وبديهي أن يكون التعريف بالدين (أي البلاغ) وبالغايات من الخلق مقصورة على شعب دون غيره ، بل يجب أن يشمل هذا البلاغ الناس كافة ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾

(القران المجيد : سبأ {٣٤} : ٢٨)

وينبع هذا الفكر ؛ من رحمة الله بعباده .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾

(القران المجيد : الأنبياء {٢١} : ١٠٧)

تحقيقا لقوله تعالى :

﴿ .. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾

(القران المجيد : الإسراء {١٧} : ١٥)

لأنه إذا لم يحقق الإنسان الغايات من خلقه فسوف يخسر وجوده ومصيره بشكل أبدي ..!!! ولما كانت حقيقة الدعوة إلى الدين الإسلامي (أي الدعوة إلى الحقيقة المطلقة) ليست ترفا فكريا قد يؤخذ به أو لا يؤخذ به .. بل هي غايات من خلق الإنسان .. لذا كان الهم الأكبر للرسول (ﷺ) — ومن تبعه — هو توصيل كلمة الحق إلى الإنسان . ولا يشترط في هذا سوى أن يخلي غير المسلمين ، الفرصة للمسلمين للقيام بتوصيل هذه الكلمة إلى الآخرين حتى لا يحرموهم من هذه الرحمة . وبديهي ؛ لا يشترط الإيمان بهذه الكلمة .. لهذا كان قوله تعالى لأنبيائه ورسله لأن يقولوا لمن حولهم ..

﴿ وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) ﴾

(القران المجيد : الدخان {٤٤} : ٢١)

أي كل المطلوب في حالة عدم إيمان فئة ما .. بالرسل (ومن تبعهم) أن يخلوا بينهم وبين دعوتهم للآخرين .. حتى لا يحرموا الآخرين من هذه الرحمة . فإن أصرت هذه الفئة الظالمة (لنفسها وللآخرين) على منع كلمة الله من الوصول إلى الاخرين .. هنا يصبح " **جهاد** " هذه الفئة مطلوبا وواجبا لتوصيل كلمة الحق إلى الاخرين ولو بالقوة . ولا يعني هذا إلزام الاخرين بالإيمان بما يقال ..!!! لا ..!!! ولكن كل المطلوب هو الإعلام ــ فقط ــ بالحق وبالحقيقة المطلقة .. حتى يتحقق قوله تعالى : **﴿ .. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾** . وفي جميع الأحوال ؛ " **نهى الإسلام عن قتال الاعتداء** " على النحو السابق ذكره . وأكتفي بهذا القدر .. ويمكن الرجوع إلى مراجـــع الكاتب السابقة لرؤية معنى : **القتال في الإسلام .. وانتشار الإسلام**[٥] .

ومن هذا المنظور ؛ كان على الرسول (ﷺ) القيام بهذا البلاغ للحضارات المحيطة به . وقد افتتح رسول الله (ﷺ) هذه العلاقة المباشرة بين المسلمين والروم[٦] في **صدر العام الهجري الأول (عام ٦هــ = ٦٢٩م / القرن السابع الميلادي)** ، حين كتب إلى قيصر يدعوه وقومه إلى الإسلام .. فجناح الدعوة لابد وأن يتسع ليضم تحته المشارق والمغارب ، ويشمل أهل البادية وسكان الحواضر ، ويحتوي العرب والأعاجم . كما بعث الرسول (ﷺ) بكتاب إلى أمير بُصرى التابع لقيصر . فكان الردُّ السيئُ على هذا الكتاب سببا هاجت لأجله الحرب بين المسلمين والروم ووقفت على قدميها ، فجهز النبي (ﷺ) جيشا قاتل الروم في **مُؤتة** عام ثمانية من الهجرة في أول صدام مسلح معهم . وفي العام التالي خرج النبي (ﷺ) بنفسه على رأس ثلاثين ألفا من أصحابه لقتال الـــروم ، فكانت غزوةُ **العُسْرة** . حيث بلغ المسلمون تَبُوكَ وجبُن الرومُ عن القتال .

وهكذا ؛ فالدين الإسلامي هو دين بلاغ ورحمة للبشرية ــ أولا وأخيرا ــ لأنها غايات من خلق الإنسان . وكانت البلاد قديما لا يمكن تبليغ الدين الإسلامي إلى أهلها إلا بإذن ملوكها

٥ " بنو إسرائيل .. من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر " ؛ مكتبة وهبة .

٦ الروم : مصطلح عربي استخدم في فترات مختلفة للدلالـــة على الأوروبيين بصفة عامـــة . وعلى البيزنطيين بصفة خاصة (أنظر تذييل رقم ١٥ من الفصل الثالث للتعريف بالإمبراطورية البيزنطية) . وتعليل ذلك أن الإغريق البيزنطيين (القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية / وورثة الامبراطورية الرومانية) كانوا . عندما واجههم العرب . يطلقون على أنفسهم اسم " رومايو : Ramaioi وهي لفظة يونانية معناها "الرومان" . ومن هنا أطلق العرب على البيزنطيين اسم " الروم " كما أطلقوا على أراضي الامبراطورية البيزنطية اسم " بلاد الروم " . وعلى البحر الأبيض المتوسط اسم " بحر الروم " .

وأمرائها لأن **الناس على دين ملوكهم** .. وهذا هو سر تحميل النبي (ﷺ) في رسائله إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وغيرهم [٧] .. إثمهم وإثم رعيتهم إذا رفضوا دعوة الإسلام حيث لا يمكن للرعية سماع الدعوة إلا بإذنهم . فإذا رفض الملوك والأمراء السماح للمسلمين بالبلاغ .. لم يمكن الوصول إلى الرعية واختراق الأسوار إلا في ظل الجيوش ، ولكن قبل الجيوش كان **الإسلام يسعى للسلام أولا وأخيرا** . ولهذا ؛ كانت " **الجزية** " .. التي تطلب أولا قبل الجيوش لتعلن عن موافقة وقبول الحاكم أو الأمير للسماح للمسلمين بالحركة الآمنة داخل البلاد لتبليغ رسالة " الله " (ﷻ) .. ولكن بلا إكـراه في القبول .. ولكن كان **للجزية** هدف آخر نعرض له في الفقرة التالية ..

• الجزية في الإسلام ..

الجزية في الفكر الإسلامي لم يقصد بها ــ على الإطلاق ــ الضغط المادي على غير المسلمين لدخول الدين الإسلامي (كما يدعي الغرب بهذا) .. بل " **الجزية** " ــ في حقيقة الأمر ــ لم تخرج عن كونها " **ضريبة دفاع** " على غير المسلمين لعدم مشاركتهم في الدفاع عن الدولة المقيمين فيها . فأهل الديانات الأخرى ــ في الدولة الإسلامية ــ هم أهل ذمة (أي لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين) . وعندما رفض الرسول (ﷺ) عدم مشاركة غير المسلمين في القتال جنبا إلى جنب إلى القوات المسلمة التي تتولى الدفاع عن الدولة (أنظر التذييل الثاني من الفصل الأول) ، كان على غير المسلمين دفع " **ضريبة دفاع** " للمسلمين لدفاعهم عنهم من جانب ، وعدم مشاركتهم في الدفاع عن الوطن من جانب آخر . وقد سجل التاريخ الإسلامي هذه المعاني في كثير من المواقع .. حيث يقول **سير توماس أرنولد** [٨] في هذا الموضوع :

---

٧ بعد صلح الحديبية (عام ٦ هجرية) أمن المسلمون شر قريش ، وأصبحت طرق المواصلات مع سائر الجهات متيسرة ، فشرع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في نشر الدعوة وتعميمها ، فكاتب ملوك الأرض يدعوهم وأممهم إلى الإسلام ، فبعث بتسعة رسائل إلى : ١. قيصر ملك الروم / ٢. أمير بصرى / ٣. أمير دمشق التابع لملك الروم / ٤. المقوقس أمير مصر من قبل ملك الروم / ٥. النجاشي ملك الحبشة / ٦. كسرى ملك الفرس / ٧. ملك البحرين / ٨. ملكي عمان / ٩. ملك اليمامة .

٨ " الدعوة إلى الإسلام : بحث فى تاريخ نشر العقيدة " سير توماس و. أرنولد : **Sir Thomas W. Arnold** " ؛ ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . مكتبة النهضة المصرية . ص : ٧٩ – ٨٠ .

[لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة (أي الجزية) على المسيحيين ــ كما يريدنا بعض الباحثين أن نظن ــ لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام ، إنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من **رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش** ، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين . وعندما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة " أن يمنعوهم (يحموهم) وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم " . وكذلك حدث أن سجل **خالد ابن الوليد** في المعاهدة التي أبـرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قولـه : " **فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا]** .

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت إبان **حكم الخليفة عمر بن الخطاب** . لما حشد **الإمبراطور هرقل** جيشا ضخما لملاقاة المسلمين ، كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث ، أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم . **فلما علم بذلك أبو عبيدة بن الجراح قائد العرب ، كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام** (أي حكام المسلمين) **يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من الجزية من هذه المدن ، وكتب يقول للناس : " إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم (نحميكم) وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط . وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم** " . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم) ، فلو كانوا هم لم يـردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقى لنا " .

ثم يتساءل سير توماس أرنولد : على من فرضت الجزية ؟ .. ويجيب : فرضت الجزية على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين . ومن الواضح ــ تاريخيا ــ أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي . ويسوق **سير توماس أرنولد** الأمثلة الكثيرة الدالة على هذا فيقول : " وكان الحال مع **قبيلة الجراجمة** ، وهى **قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية** ، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونا لهم وأن تقاتل معهم في مغازيهم ، على شريطة ألا تؤخذ منهم الجزية . وقد أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد ، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية " .

وهكذا نجد أن الجزية قد أسقطت منذ زمن الصحابة والتابعين عمن قبل الاشتراك من غير المسلمين في الدفاع عن الدولة الإسلامية ، فقد أسقطها **سراقة بن عمرو** عن أهل أرمينية سنة ٢٢ هجرية ، وأسقطها **حبيب بن مسلمة الفهرى** عن أهل أنطاكية ، كما أسقطها بعض قواد جيش أبى عبيدة بن الجراح ــ وأقره أبو عبيده ومن معه من الصحابة ــ عن **الجراجمة** .. على النحو الذي ذكره سير توماس أرنولد .

ونجد أمثلة أخرى شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي . مثال ذلك ما عومل به أهل " **ميجاريا : Migaris** " وهم جماعة من **مسيحي ألبانيا** الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال : " **Cithaeron** " و " **Geranes** " التي كانت تؤدى إلى **خليج كورنثة** . وكان المسيحيون الذين استخدموا كطلائع لمقدمة الجيش التركي ، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور معفون من أداء الخراج .. بل ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب ..

ونختم هذه الفقرة بالقول بأن أصح تعليلات الفقهاء للجزية هى : " أنها بدل عن مشاركة غير المسلمين فى أداء واجب الجندية " وقد أشار إلى ذلك كثير من الفقهاء ، بل وصرح به **الإمام ابن حجر العسقلانى** فى شرحه لصحيح البخارى (ج ٦ ، ص : ٣٨) ، فقال : " **إن الجزية عند الجمهور (أكثرية الفقهاء) هى بدل الجهاد** " . ومن هنا نقول : إن غير المسلمين في الدول الإسلامية الحديثة هم مواطنون لهم كل ما للمواطنين المسلمين من حقوق وعليهم كل ما على المسلمين من واجبات ، **ومن بينها الجندية** . لهذا لا يجوز القول بوجوب الجزية عليهم كنوع من الضغط الديني ، لأن الجزية من الأحكام المعروفة العلة ، وعلتها عدم المشاركة في الجيش الإسلامي .. وقد انتهى هذا الوضع الآن ، لذا فلا مكان للقول بوجوب الجزية بأي شكل من الأشكال .

وهكذا ؛ تجلت سماحة الإسلام ــ تاريخيا ــ في فرض الجزية .. فالإسلام لم يطالب الاخر غير المسلم في الاشتراك في القوات المسلحة الإسلامية حتي لا يدافع عن عقيدة هو غير مؤمن بها ، وبالتالي فان المسلمين ملتزمون بالدفاع عنه . فالجزية هي جزء من نفقات الجيش الذي يدافع عن غير المسلمين . كما كان للجزية منظور فكري اخر ؛ فالدولة الإسلامية مطلوب منها ان تقيم امنا وقضاء وطرقا ومساقي .. وخلافه .. وتنفق عليها من بيت مال المسلمين . ومصادر تمويل بيت المال هو " **الزكاة** " وهي فرض ديني علي المسلمين لا يستطيعون فرضه

على غير المسلمين ، ولهذا فرضت الجزية ــ في مقابل الزكاة ــ للمشاركة في إنشاء مرافق الدولة بصفة عامة .

ويبقى أن أشير إلى أن ٧٥% من الشعوب غير المسلمة كانت معفية من دفع الجزية مثل الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والرهبان والفقراء والمرضى .. وكان مقدارها ــ كما يذكر التاريخ ــ درهما واحدا وهو أصغر عملة في ذاك الوقت . وفي المقابل ــ كما يذكر التاريخ أيضا ــ أن الدولة البيزنطية كانت تفرض على المصريين ٢٥ ضريبة ، وكانت تحصل أيام هرقل ومن جاء بعده . فقد كانت الضرائب تدفع على كل شيء .. حتى الموت كان له ضريبة تسمى " ضريبة الموتى " ولا يدفن المتوفى إلا إذا دفع أهله الضريبة . وهكذا ؛ كانت الجزية لا تساوي شيئا أمام ٢٥ ضريبة في ذلك الوقت ..!!!

فهذه هي الجزية ــ باختصار شديد ــ ومفهومها في الدين الإسلامي ..!!! **حتى وإن كان الغرب لا يريد أن يفهم معناها حتى الآن ..!!! ويبقى أن أشير إلى أن مصطلح " أهل الذمة " لم يعد مستخدما بعد .. وحلت محله المواطنة والجنسية السياسية .**

• عدالة الإسلام ..

وتبقى كلمة أخيرة حول " عدالة الإسلام " ، فالمولى (ﷻ) يأمر بالعدل على نحو مطلق كما يأمر بالوفاء بالعهد .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) ﴾

(القران المجيد : النحل {١٦} : ٩٠ – ٩١)

حيث يفرض المولى (ﷻ) **العدل** ــ بشكل مطلق ــ على المؤمن مهما كانت الكراهية التي يحملها للاخر .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾

(القران المجيد : المائدة {٥} : ٨)

[لا يجرمنكم : لا يحملنكم .. والكلمة تعني أن الانحراف عن الحق يحمل معنى الإجرام / شنآن قوم : بغضكم للقوم وكرهكم لهم / التقوى : في أبسط معانيها .. تجنب غضب الله سبحانه وتعالى]

وقد تجلى تطبيق هذه المعاني في الإسلام حتى إن عتاة الكفرة والمجرمين والقتلة اطمأنوا ــ بعد إسلامهم ــ إلى عدالة الإسلام وتطبيق قاعدة : " الإسلام يجب (أي يمحو) ما قبله " .. حتى " وحشي " الحبشي الذي قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله (ﷺ) وأحب خلق الله إليه ، قبل الرسول إسلامه ولم يمنعه حقا من حقوقه . وعاش " وحشي " مجاهدا وبيده صرع " مسيلمة الكذاب " في موقعة اليمامة ضمن حــروب الردة في عهد أبي بكر (ﷺ) .

وتكرر مثل هذا المشهد في عهد " عمر بن الخطاب " (ﷺ) . فقد حزن عمر حزنا شديدا على أخيه " زيد " الذي استشهد في موقعة اليمامة ، وتمنى عمر أن يكون شاعرا حتى يرثي أخاه بشعر كشعر " متمم بن نويرة " في رثاء أخيه " مالك " . وبعدها أسلم القاتل " أبو مريم السلولي " والتقى عمر به في خلافته ، فقال له : أنت قاتل أخي ، والله لن أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح (أي لن أحبك أبدا) . فسأله " أبو مريم " : أيدفعك ذلك إلى ظلمي ، فأجاب عمر ــ على الفور وهو الخليفة ــ : اللهم لا . قال أبو مريم : لا ضير .. إنما يأسى (أي يحزن ويتحسر) على الحب النساء !

ويبقى أن أذكر قول الرسول الكريم عن بعثته .. بقوله ..

[إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] (متفق عليه)

وهكذا في ظل " عدالة الإسلام الشاملة " عاش قاتل شقيق " خليفة المسلمين " .. كما عاش قاتل " عم الرسول " ــ بعد إسلامهما ــ امنين متمتعين بعدالة الإسلام وقد جب الإسلام جريمتيهما .

* * * * * * * * * * * *